

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

كتب ثقافية

النضال الشعبي

ضد الحملة الفرنسية

بقلم
مقدم / محمد فرنج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم : محمد عطا

ان فترة الحملة الفرنسية على مصر تعد من الفترات التي ظهر فيها معدن المصريين الحقيقي واصالتهم في الحرية ، وفي تمسكهم باستقلالهم ، والحفاظ على تقاليدهم وتراثهم ، هي فترة مجيدة في كفاح الشعب المصري وصموده واستبساله ، ومن دواعي الأسف أن التواريخ التي قرأناه لم يكشف عن هذا الكفاح وعن استمراره ، وعن دوافعه ، وعن شموله وعمقه ، ولم يكن ذلك الا لأن التاريخ الذي قرأناه كان تاريخا استعماريًا أو مستقي الجبرتي . هذا المؤرخ العظيم الذي عرف التواريخ على أنه تاريخ كفاح شعوب لا تاريخ أمراء وسلاطين وملوك فقد أرخ لكفاح الشعب في هذه الفترة كما ينبغي أن يؤرخ ، ولعله المرجع الأصيل الوحيد لنضال شعبنا حين الحملة الفرنسية .

وقد يقول قائل اذا كان الامر كذلك فلم يكتب الكاتيون المحدثون عن نضال الشعب في هذه الفترة ولم لا نكتفى بما كتبه الجبرتي ؟

والرد على هذا التساؤل يسير إذ أن الجبرتي لم يتناول هذه الفترة تناولا مستقلا في تاريخه ، على أنه في تناوله لها قد كان هواه بعض الشيء مع العثمانيين ، هذا الى أن لغته في الاعم الأغلب لغة سقيمة محشوة بكثير من الالفاظ التركية وخاصة في الناحية الحربية .

على أن المؤرخ المحدث لهذه الفترة دقيق في تبويبه وتصنيفه ، لا يكاد يعتمد على مصدر واحد (المصدر المصري أو التركي أو العربي) بل عليه أن يستعرض ما كتبه الأجانب عن هذه الفترة ، وهذا العرض لوجهات النظر المختلفة يؤدي به الى سلامة التحليل والتعليل واصدار الأحكام .

وهذا ما فعله المقدم محمد فرج في هذا المؤلف الذي اعتمد فيه على مصادر مختلفة شرقية وغربية ، وحلل الموقف العسكري للحملة تحليلا عميقا وقد مكنته دراسته العسكرية من هذا التحليل .

ولا شك أننا في حاضرتنا نحتاج الى اصدار مثل هذه المؤلفات التي تعرض أمجاد شعبنا ، وتصحيح لنا التواريخ القومي ، ونهيئ لناشئتنا السبيل القويم للاطلاع على هذه الامجاد والتزود من هذا النضال الرائع حتى يشبوا على كفاح كل معتد غاصب ، وحتى يؤمنوا بأن أجدادهم قد ضحوا تضحيات غالية ، فلقد أحرقت دورهم ، وصودرت أملاكهم ،

وأسيئت دماؤهم على أرض مصر الطاهرة ، وعلى الرغم من كل أولئك فقد استهانوا بهذه التضحيات ومضوا في كفاحهم الى نهاية الشوط .

لقد كان الفرنسيون في مصر يعيشون فوق بركان ثائر ، لم يهدأ يوما ولم يخب لحظة ، وهذا هو الذي عجل بطردهم وعودتهم من حيث أتوا يجرون أذيال العار والهزيمة على الرغم من أنهم كانوا في ذلك الوقت في أوج مجدهم الحربى ، ويقودهم قائدهم الكبير نابليون بونابرت .

ان المصريين لقنوا الفرنسيين درسا لن ينسوه ، هذا الدرس هو أن الشعوب الحية لا تخضع ولا تذلل ولا تنام على الضيم ، وقد لقنوهم هذا الدرس مع ما كانوا فيه من عنيت ، وما عانوه من اضطهاد ، اضطهاد الاتراك و صلف المالك ، وجبروت الاقطاعيين .

ان هذه الحملة استنزفت الكثير من دمائهم وأقواتهم وأرواحهم ولكنهم كانوا كراما في البذل لأنهم وضعوا نصب أعينهم تاريخا يسطر ، وأجيالا قابلة ستحكم على مدى كفاحهم ونضالهم ، ولأن الحرية تجرى فى عروقهم مع دمائهم .

وهذه الحملة كما سبرى القارىء قد فتقت آذانهم حتى أنشئوا المصانع الحربية التى زودتهم بالقنابل والمدافع والبنادق والأسلحة المختلفة، أنشئوها من العدم أو ما يشبه العدم فأثبتوا جدارتهم واستحقاقهم الحياة والخلود .

ولا شك أن من يقرأ هذا السفر سيخرج منه وهو فخور بهؤلاء الأبطال أبناء بولاق والحسينية وباب الشعرية ، فخور بأبناء دمنهور والزقازيق والاسكندرية وكل بلد فى الوجه البحرى ، وكذلك سيكون فخورا بأبناء الصعيد الذين استعصوا على أن تسيطر عليهم القوة الغاشمة، القوة الفرنسية المحتلة فظلوا أحرارا لم تنلهم يد الطغيان ، ولم تحتل أرضهم القوات الأجنبية الفرنسية .

وحسب هذا السفر أن يوقظ فينا هذا الاحساس ، وأن يشعرنا بالفخر نحو أجدادنا الأبطال .

محمد عطا

مقدمة المؤلف

قفزت الى ذهني فكرة اعداد هذا الكتاب حين كنت أستمع الى الرئيس جمال عبد الناصر وهو يقدم لأعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية مشروع الميثاق الوطني ... ولعل الفكرة قد احتلت مكانها في ذهني حينما تناول الرئيس جمال عبد الناصر بالحديث الجهاد البطولي للشعب المصري خلال القرنين الماضيين .

ولقد سرحت بخاطري خلال التاريخ فوجدت أن الشعب المصري يحتل مكانا مرموقا بين شعوب العالم التي قامت تكافح وتناضل من أجل سيادتها وحريتها واستقلالها ، وأدركت من الحقائق التاريخية أن الشعب المصري كان أكثر شعوب العالم تعرضا لمطامع الاستعمار والمستعمرين وأكثر هذه الشعوب مقاومة لها .

لقد جاء الى مصر مستعمرون من كل البلاد ، وطمعت فيها دول كثيرة ... جاءها الاتراك ... ثم الفرنسيون ... ثم الانجليز ... والشعب المصري خلال القرنين الماضيين يواجه هؤلاء وهؤلاء ... لم تقل عزيمته ... لم تضعف روحه ... لم تلن قناته ... لم تتهدم معنوياته ... لم تت

وخرج الفرنسيون مهزومين مدحورين ، ثم تولى الشعب قيادة نفسه .
وأعلن زعماءه اختيار محمد علي واليا على البلاد ، . . . وكان محمد علي أول
وال يعين بناء على رغبة شعبية . . . وانحرف محمد علي عن الطريق الوطنى ،
وبدأ يرسم لنفسه سياسة توسعية يقصد انشاء امبراطورية تدين بالولاء
له . . . واصطدمت آمال محمد علي مع آمال الشعب ، وبدأ الشعب يخوض
غمار معركة جديدة ضده ، ثم ضد أبنائه وأحفاده الذين تولوا حكم البلاد
طبقا للنظام الوراثى الذى قرره الدول فى ذلك الوقت ، وانحرف أبناء
محمد علي جميعا ، وابتعدوا عن الشعب ، وبحثوا عن وسائل ترقية حياتهم
وارضاء نزواتهم ، واهتموا بالمظهر والأبهة والعظمة ، وأهملوا شئون
الرعية ، فانتشر الجهل والفقر والمرض .

وابتداً المارد الجبار يتحرك بعد أن أدرك النهاية المؤلمة التى يقوده
اليها حكم أسرة محمد علي ، وأحس هؤلاء الحكم بقوة المارد ، فبحثوا عن
وسيلة توطد حكمهم وتثبت وجود

ولما كان حديث الكفاح الشعبى فى مصر يحتاج الى مؤلفات كثيرة
فلقد رأيت أن أقسم الكتاب أجزاء ، يتناول كل جزء منها حقبة من تاريخ
الكفاح الشعبى حتى أستطيع بذلك أن أعطى الموضوع حقه وأن يخرج
بالصورة التى تتفق مع مجد الكفاح الشعبى فى مصر .

وما هو ذا الجزء الاول من الكتاب ، يؤرخ الكفاح الشعبى المصرى
ضد الحملة الفرنسية ، وأرجو أن تتابع الأجزاء ، وأن يجدها القارىء
مكتملة بين يديه فى وقت قريب .

وتمائة ما أرجوه هو أن يكون الله لى خير رفيق وأن يكتب لنا فيما
نحن مقبلون عليه السداد والتوفيق

محمد فرج

البَابُ الأولُ مِصرُ والحِمْلةُ الفرنسيّةُ

- ١ - مِصرُ قبلَ الحِمْلةِ الفرنسيّةِ
- ٢ - الاتّجاهُ إلى احتلالِ مِصرِ
- ٣ - الحِمْلةُ الفرنسيّةُ واحتلالُ مِصرِ

مصر قبل الحملة الفرنسية

بانتهاى موقعة الريدانية ، التى تمثلت فى طرفين ، أحدهما السلطان العثمانى سليم الاول ، والاخر طومانباى نائب والى مصر السلطان الغورى الذى قتل فى معركة « مرج دابق » أمام جحافل السلطان العثمانى
بانتهاى هذه المعركة ، أصبحت مصر ولاية عثمانية ، تابعة للسلطان العثمانى ، وظلت مصر منذ انتهاء هذه المعركة تحت الحكم العثمانى حتى جاء نابليون بونابرت بجيوشه فاحتلها ، وأبعدھا الى حد ما (١٨ من أكتوبر ١٨٠١ عن سلطة الدول العثمانية .

وفى هذه الفترة (١٥١٧ - ١٧٩٨) عاشت مصر تقاسى فى حياتها الاجتماعية والسياسية ، فى ظل النظام العثمانى الذى وضعه السلطان سليم الاول ، ثم هذبه الى حد ما السلطان سليمان القانونى ، وكان من الواضح كما أكد التاريخ ، أن البلاد كانت تتنازع السلطة فيها ثلاث هيئات

الوالى ... الذى كان يعينه السل

العلماء ورجال الشرع : وهؤلاء كانوا يتولون قيادة البلاد الفكرية وزعامتها الأدبية والسياسية .

طائفة الملاك والتجار : وهؤلاء كانوا يسكنون المدن ، وكان فيهم عدد قليل من الاغنياء .

طائفة الزارعين : وكانوا يشكلون الشطر الاكبر من الأمة ، يعيشون في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة ، وكانت زراعتهم في تقهقر وتأخر ، كما أنهم كانوا أكثر استهدافا لمظالم الحكام ، وفداحة الضرائب التي نحرمتهم ثمرة كدهم وتجعلهم في حالة فقر مستمر .

طائفة الصناع : وهؤلاء كانوا من الطبقات الفقيرة يباشرون صناعات صغيرة غير تقدمية .

وكان الشعب في مصر « مسلمين وأقباطا » ، يعيش في ظل ظلم الحاكم وسوء الادارة ، واشترك الاثنان معا في المشاعر والعواطف والرغبة في التحرر والسيطرة ، والتقىا عند آمال واحدة في التخلص من المظالم التي تعرض لها الشعب وعاش في ظلها .

الاتجاه إلى احتلال مصر

فكرة غزو مصر ...

يؤكد المؤرخون أن الحملة الفرنسية على مصر هي مرحلة من مراحل التسابق على الفتح والاستعمار بين إنجلترا وفرنسا منذ القرن السابع عشر ، ولقد تطورت مراحل التسابق بين الدولتين تطورا كبيرا على أثر قيام الثورة الفرنسية ، فقد استطاعت جيوش فرنسا بقيادة نابليون بونابرت أن تخضع أوروبا وأن تنتصر في القارة الأوروبية، في حين ظلت إنجلترا بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار، بمأمن من انتصارات نابليون ، ومن هنا اشتدت الرغبة في القضاء على إنجلترا وقهرها في مختلف الميادين ، ومن هنا أيضا برزت فكرة احتلال مصر كخطوة أولى نحو احتلال الهند بقصد ضرب إنجلترا في مستعمراتها ، طالما أنها شديدة المراس قوية الشكيمة وليس من اليسير مهاجمتها في أرضها .

اختمرت فكرة غزو مصر في ذهن نابليون، بعد أن تمت له السيطرة الكاملة على جميع أجزاء إيطاليا .

ولا عجب في ذلك ، فـ نابليون كانت له مط

وأن يجعل من هذا البحر بحيرة فرنسية كما جاء في مذكراته .

(ب) احتل « كورنو » بعض جزر البحر المتوسط لتكون قاعدة بحرية له ، يستمد منها أسطوله ما يحتاج إليه من مؤن وذخائر .

(ج) بعث الى حكومة الادارة في فرنسا - وهي الحكومة التي كانت تتولى الأمر فيها ، والتي ظلت قائمة حتى استبدل بها نابليون سنة ١٧٩٩ القنصلية - يقول « ان المواقع التي نحتلها على شواطئ البحر المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ويجب علينا أن نرقب تطورات السلطة العثمانية التي أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا اما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلحتها ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها في الاقيانوس الاعظم ، فاذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء فلينتجأ عنه ، ولنحتل مصر ، فيكون لنا فيها الطريق المؤدى الى الهند ، ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم . واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فعلينا أن نهاجمها في مصر ، »

(أ) **وجهة نظر حكومة الادارة** . . . كانت حكومة الادارة ترى وجوب ضرب انجلترا مباشرة ، أى غزو الجزر البريطانية ، ومن أجل هذا أعدت جيشا خاصا يقوم بهذه العملية ، أطلقت عليه اسم جيش انجلترا وكانت ترى فى مهاجمة مصر خطرا بالغا ينحصر فى عدة عوامل . . .

الاول : أن أسطول فرنسا سيلتقى قطعا بأسطول انجلترا ، وانجلترا مشهود لها بالكفاية البحرية والقدرة على القتال البحرى .

الثانى : ان غزو مصر سيثير غضب الحكومة العثمانية ، وبذلك يزيد عدد أعداء فرنسا واحدا . . . ويصبح على فرنسا أن تواجه عدوين (انجلترا وتركيا) بدلا من أن تواجه عدوا واحدا . .

الثالث : كانت حكومة الادارة ترقب تدخل روسيا المستمر فى المسألة الشرقية ، ولهذا فقد كانت واثقة من أن روسيا ستتنظر بعين الاعتبار الى غزو مصر ، وسوف تدلى بدلوها فيما ينتج عن هذا الغزو من مشكلات . .

الرابع : قبول حكومة الادارة فكرة احتلال مصر معناه ابعاد خير

الحملة الفرنسية واحتلال مصر

سرية الحملة وتكتم أمرها ..

اقتنعت حكومة الادارة بوجهة نظر نابليون واستقر الرأي على أن يكون يوم ٥ من مارس ١٧٩٨ هو موعد البدء ، وبذلت جهود كثيرة للاعداد للحملة ، فتكون جيش الشرق الذي زود بمعدات كثيرة وأكد المؤرخون أن الاعداد للحملة تم في سرية تامة وتكتم شديد حتى لا يتسرب الخبر الى الحكومة الانجليزية ، وقيل ان أحدا في فرنسا لم يكن يعلم سر الاعداد ووجهة الحملة الا نابليون وحكومة الادارة والمسيو «تاليران» وزير الشؤون الخارجية ، وبلغ من شدة المحافظة على السرية أن أطلق على الجيش الذي أعد للحملة اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلترا » ، رغبة في أن يفهم أن الجيش يعد لغزو انجلترا في جزيرتها .

مطامع فرنسية سابقة في مصر ...

يتضح من تاريخ فرنسا

وتضمنون بسط سلطان فرنسسا وسيادتها في بلاد المشرق (٠٠) ولم يستطع لويس الرابع عشر تنفيذ هذه النصيحة لانها قدمت اليه بعد أن دخلت جيوشه هولندا ، ولأنه من ناحية أخرى كان يحرص على صداقة تركيا رغبة في حملها على الانضمام اليه ضد الدول الاوربية المعادية وفي عهد « لويس الخامس عشر » قفزت فكرة احتلال فرنسسا لمصر الى مكان الصدارة في سياسته الخارجية « وخاصة أن الدولة العثمانية كانت في دور الانحلال واتجه في تحقيق ذلك الى محاربة الاتفاق مع تركيا على التنازل عن مصر ، وكلف الدوق « دي شوازل » القيام بالسعى لدى تركيا ولكن لم تجر أية مفاوضات في هذا الشأن حتى كان « لويس السادس عشر » فتجددت الفكرة ، وأوفدت حكومته البارون « دي توت » الى ثغور السلطنة العثمانية لدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم توت تقريراً الى الحكومة يعدد فيه مزايا احتلال مصر ويؤكد سهولة اتمامه ، ولكن المشروع طوى لاشتغال فرنسا بحرب الاستقلال الامريكية .

ودخلت العلاقات الفرنسية المصرية في دور الرغبة الأكيدة من جانب فرنسا لاحتلال مصر وخاصة بعد ان وصلت الى فرنسا الشكوى المرو من سوء معاملة التجار الفرنسيين بها وظلت فكرة احتلال مصر في أذهان الفرنسي

والتقى الجيشان بعد ذلك في امبابة على مقربة من الاهرام واستطاع
جيش نابليون أن يقضى على جيش الماليك وفر مسراد بك الى الصعيد ،
وابراهيم بك الى الشرقية .

ومن المهم أن نوضح أنه في اللحظة التي استتب فيها الأمر لنابليون
في مصر بدأ المصريون يعدون أنفسهم للكفاح والنضال ضد الفرنسيين
رغبة في طردهم ، وفي بقاء البلاد تحت سلطتهم وسيطرتهم وسيادتهم ،
وخاصة أنهم تخلصوا في هذه اللحظات من سيطرة الماليك واستبدادهم ،
وظهر العملاق المصرى يكيل الطعنات لنابليون الذى دوخ معالك أوروبا وهز
عروشها واستباح أهلها ، وكانت معارك متعددة أثبت فيها المصريون أنهم
أصحاب الأرض ، الحريصون عليها ، وأنهم سادة البلاد ، لا كلمة الا
كلمتهم ، ولا سيادة الا لهم ، واستطاع المصريون باتحادهم والتفافهم حول
زعمائهم أن يواجهوا قوة الفرنسيين وأن يقفوا أمامهم موقف الند ، وأن
يخوضوا ضدهم المعارك فيسجلوا صفحات خالدة من الكفاح الشعبى
البطولى الذى هز التاريخ وسجل فيه بالمجد والفخار ، وظل كفاح المصريين
حتى انتهت الحملة الفرنسية ، وباءت بالفشل .

البَابُ الثَّانِي الحالة النفسية للمصريين وقت الحملة

- ١ - محاولة التقرب الى المصريين
- ٢ - مشاعر المصريين تجاه الحملة
- ٣ - عوامل الكراهية للفريسيين

محاولة لتقرب إلى المصريين

مهما قيل فيما كانت عليه الأمة المصرية في هذه الحقبة من التأخر ، فان الشعب المصرى أبى أن يستسلم لدولة معتدية تسعى الى احتلاله وتطمع فى خيراتہ ، ولعل نابليون قد أدرك ذلك منذ اللحظات الأولى التى بدأ يخطو فيها نحو تحقيق مشروعه باحتلال مصر ، ولهذا حاول أن يجتذب اليه قلوب المصريين وأن يتودد اليهم وأن يكسب ثقتهم ، لأنه كان يؤمن بأنه لن يستطيع تحقيق آماله ما لم يفز بثقة المصريين ، وما لم يجتذبهم الى جانبه .

ولكن خاب ظن نابليون ، وبرغم محاولاته المتعددة لكسب مشاعر المصريين وقف المصريون فى وجهه ، وكانت وقفتهم هذه ذات آثار مباشرة على نتائج الحملة التى باءت بالفشل .

وقبل أن نتناول بالحديث كفاح الشعب المصرى ونضاله لا بد لنا من وقفة نوضح فيها كيف حاول ناب

الناس ولكنه يذئس شرفنا ويقضى على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التي تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها ..

ولقد حرص نابليون بعد نزول قواته الى الاراضى المصرية على توجيه النظر الى مراعاة مشاعر المصريين ، والى عدم الاصطدام بهم في عقائدهم وعاداتهم ، ولم يفرق نابليون في توجيهاته بين القادة الذين يعملون تحت امرته وبين الجنود ، ولهذا نجده يوصى الجنرال كليبر الذى عينه حاكما على الاسكندرية ان « يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الاهالى وابداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة » وسار كليبر فى ذات الطريق الذى حدده له قائده ، لانه أحس ان المصريين ينظرون الى الفرنسيين بعين المقت والكراهية .

وحدث أن بعضا من بحارة الاسطول نزلوا فى أبى قير ، واغتصبوا بعض التجار ، وقطعوا بعض النخيل ، وأتلفوا بعض البيوت فأغضب ذلك كليبر وبعث الى الاميرال « برويس » قائد الاسطول يقول « انكم لا تقدرون عواقب هذا السل

وأدرك نابليون ذلك ، ولهذا اتجه الى العلماء ، وحاول أن يربط بينه وبينهم **برباط المودة** ، فقد كان يؤمن بأن كسب العلماء الى صفه يعنى كسب الشعب أجمع ولهذا نجده على أثر انتهائه من معركة الاهرام يطلب الاجتماع بكبار المشايخ زاعما أنه لاجل « راحتكم وراحة الرعية وأجراء الشريعة » ، ولما علم بأن المشايخ قد غادروا المدينة خوفا من الاحتلال بعث اليهم بالامان ، ودعاهم الى الحضور ليتشاور معهم في تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين .

والمتتبع لخطوات تأليف الديوان في القاهرة يرى ان نابليون استدعى المشايخ واجتمع بهم وطلب منهم اختيار عشرة ليكونوا أعضاء في الديوان ، ووقع الاختيار كما ذكر « الجبرتي » على المشايخ « الشرقاوى ، والبكرى ، والصاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والسرسى ، والدمهورى ، والعريشى ، والشبراخيتى ، والدواخلى » .

ولعل مما يؤكد محاولة نابليون التقرب الى العلماء والمشايخ موقفه من الشيخ السادات - وكان من كبار العلماء وله نفوذ وجاه - إذ

محمد كريم الى الجنرال « مينو » حاكم رشيد ليبعث به الى القاهرة وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض ورجاء المتكرر البالغ نهاية وكتب اليه « انى لم أستطع أن أرفض رجاء المتكرر البالغ نهاية التلطف « يقصد السيد\كريم » وأرجوكم اذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » .

ان هذه المعاملة الرقيقة للعلماء والمشايخ من جانب الفرنسيين تؤكد أنهم رغبوا فى توطيد علاقات طيبة معهم بقصد ايجاد جو من التفاهم والمودة بين الفرنسيين والمصريين ولكن متى نسى العلماء والمشايخ حق وطنهم عليهم ؟ .

لقد عاشوا حياتهم تائرين داعين الشعب الى الثورة ضد الفرنسيين بل عاشوا حياتهم قادة لهذه الثورة واستطاعوا أن يثيروا المتعصب والقلاقل من حولهم ، مما أدى الى نتائج خطيرة كان من أثرها فشل الحملة الفرنسية على مصر وخروج الفرنسيين مدحورين مهزومين .

٣ - برغم اتجاه نابليون الى العلماء فهو لم

التجار ، واساءتهم الى اهل البلاد بالمظالم التى يرتكبونها ، وهو بهذا الحديث يسعى الى استمالة قلوب المصريين اليه .

٤ - وأدرك نابليون مدى ايمان المصريين بدينهم الاسلامى ومدى تمسكهم بشعائره ، ولهذا وجه غاية عنايته الى المسألة الدينية ، فأثار في نظر المصريين اهتمامه بالديانة الاسلامية ، وأظهر لهم عنايته بكل ما يدعو اليه الاسلام ، وأعلنهم أن الحرية مكفولة الى اقصى حدودها لأقامة شعائر الدين ، ولا عجب في هذا فهو حين يخاطب المصريين للمرة الاولى يبدأ منشوره اليهم بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه » ، ثم يقول « اننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم » ، ثم هو بعد ذلك يدعو المشايخ والقضاة والأئمة ويخاطبهم بلغة رجل الدين فيقول لهم « قولوا لأمتكم ان الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها » الكوار

«الوالى» أميرا للحج في سبتمبر ١٧٩٨ وخلع عليه خلع خضراء بحضور أعضاء الديوان ، وأهداه جوادا كريما وأبلغ هذا التعيين رسميا الى جميع الدول الاسلامية والى شريف مكة كما قرر ارسال أوقاف الحرمين .

وانتهز نابليون فرصة حلول شهر رمضان فأمر بالاحتفال باثبات الرؤية احتفالات عظيمة ، حتى أن المحتسب سار بموكب كبير الى بيت نابليون بالازبكية ، وأبلغه رؤية الهلال ، وبأبلغ نابليون فى الحفاوة به .

وفى أغسطس ١٧٩٩ جرى الاحتفال بوفاء النيل ورأسه الجنرال « دوجا » الذى كان معينا قائما للقاهرة وكتب الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وذكر « الجبرتى » فى هذا الصدد « وأكثر الفرنسيين فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل ، وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفى الصباح ركب « دوجا » قائما للقاهرة وصحبته أكابر الفرنسيين وأ

المصرية أعرضت عن نابليون ولم يكن لوعوده أو لتقربه الى المصريين أو لاصلاحاته المتعددة التى أدخلها على نظم الحكم وعلى الحياة الاجتماعية ، أى أثر فى نفسية المصريين ، لانهم أدركوا بنظرتهم العميقة الى وقائع التاريخ وأحداثه ، ان نابليون اتخذ ذات السلاح مع غير مصر من الامم التى غزاها ، وانه لم يبر بوعده لامة من الامم التى فتحها ، وانه استغل جميع البلاد التى استسلمت لجحافل استغلالا بعيد المدى يخدم مصالحه وأغراضه .

وأدرك المصريون أن نابليون كان يهزأ بحرية الامم ولا يقيم وزنا لاستقلال الشعوب ، لهذا أبى المصريون أن يكونوا أداة مسخرة فى ايدى نابليون يحقق بها أطماعه وينفذ بها مشروعاته ، ويفرض بها سيطرته على الشعوب ، ولقد اعترف فرنسيون كثيرون بهذه النظرة العميقة الصحيحة من جانب المصريين ، ومن هؤلاء المسيو « مارتان » وهو من مهندسى الحملة ، فقد قال فى كتاب له أرخ فيه تاريخ الحملة الفرنسية على مصر « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فانهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاع

مشاعر المصريين تجاه الحملة

قبل أن نخوض في حديث النضال الشعبى فى مصر ضد الحملة الفرنسية يهمننا أن نبرز نقطة هامة وهى : كيف قابل المصريون الحملة الفرنسية على الأراضى المصرية ؟ ونحن باثارتنا هذه النقطة انما نهدف الى تبين حقيقة مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين خاصة ، وتجاه أى مستعمر بصفة عامة .

فالمصريون جبلوا على حب الحرية وعلى احترام سيادتهم وعلى صون استقلالهم وهذه حقيقة يؤكدها تاريخ النضال المصرى فى العصور المختلفة ، فالمصريون عاشوا حياتهم يؤمنون بالحرية ويقدمون استقلالهم ويعتزون بسيادتهم حتى فى الفترات التى اضطروا فيها الى الاستكانة تحت ضغط مستعمر أو مغتصب ، فهم فى هذه الفترات طووا ضلوعهم على آمالهم ، وانتظروا لحظة الخلاص لينطلق العملاق المصرى يحقق لهم حريتهم وسيادتهم واستقلالهم .

الثورة الفرنسية أن قوة من الفلاحين تبلغ ٢٤ ألفا كانت تدافع عن قرية امباية ، وذكر الجنرال « برتييه » في كتابه عن حروب بوناپرت في مصر وسورية « استولى الفرنسيون على قرية امباية بعد ان دافع عنها نحو ١٥٠٠ مملوك ومثلهم من الفلاحين دفاع الابطال ، ورفضوا التسليم فماتوا قتلى وغرقى وأشار نابليون في مذكراته الى دور الفلاحين - ويعنى بهم المصريين - في المعركة ، كما أشار الى ذلك كثير من الكتاب الفرنسيين نذكر منهم « ريبو » « ودى لا جونكيير » « وريكاردو » .

هذه صورة للقاء الأول الذى تم بين المصريين والفرنسيين ومما يجب الاشارة اليه أن المصريين اندفعوا لمقاومة الفرنسيين منذ اللحظة الأولى بوازع من وطنيتهم ، وبدافع من اخلاصهم لبلادهم ، ولم يكن للمماليك دخل فى هذه الجموع التى احتشدت متطوعة للدفاع عن البلاد ، واذا كانت هذه الصورة قد أوضحت مدى الكره الذى ملأ قلوب المصريين من ناحية الفرنسيين ، فان هذا الكره قد ازداد عنفا وشدة بعد أن استتب الامر للفرنسيين فى مصر ، حتى أن المصريين عاهدوا أنفسهم على العمل المستمر والكفاح المتصل للقضاء على الفرنسيين ، مهما بذلوا فى ذلك من دماء وأرواح ، ومهما كلفهم ذلك من تض

عوامل الكراهية للفرنسيين

سبق القول أن البلاد لم تقبل خضوعها للفرنسيين لأنها نظرت اليهم نظرتها الى قوم محتلين أرادوا أن يسلبوها حريتها واستقلالها وأن يتخذوا منها السبل المختلفة لتحقيق أهدافهم ومطامعهم ، وقلنا ان العامل الوطني كان الدافع الأول بل الدافع الأكبر لثورة المصريين ضد الفرنسيين ، كان هو القوة المحركة لمشاعرهم وعواطفهم والنار التي اشتعلت في جنباتهم ، والوقود الذي زادهم انفعالا واندفاعا .

ولقد قامت بجانب هذا **العامل الوطني** عوامل أخرى كانت من أسباب اثرة المصريين ضد الفرنسيين ، فبرغم ما وعدت به القيادة الفرنسية من مراعاة مشاعر الاهالى ومصالحهم ، وعدم مس هذه المصالح ، وقعت القيادة الفرنسية فى أخطاء متعددة أدت الى زيادة البركان ، وإلى امتداد الثورة ، وإلى تكتل المصريين جميعا .

١ - ولعل **فرض الضرائب** كان من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها الفرنسيون ، فالمتتبع لظروف البلاد الاقتصادية

هكذا تهيأت النفوس للثورة ضد الفرنسيين ، وهكذا استعد المصريون جميعهم رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا وشباناً وتجمعوا جميعاً حول فكرة واحدة آمنوا بها إيماناً عميقاً وهي تخليص مصر بلدهم العزيز من ظلم الفرنسيين واحتلالهم .

هبت البلاد كلها تقاوم الحملة الفرنسية وتقاوم أطماع نابليون وتقف في وجه الطغاة الظالمين وتصد عن نفسها مظالمهم وجبروتهم محاولة أن تبتعد بنفسها عن وحشيتهم ، وأن تنقذ نفسها من اعتداءاتهم الآثمة .

وظل النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية مستمرا منذ اللحظات الأولى التى وطئت فيها أقدام الفرنسيين أرض الوطن ، مما عجل بانتهاء الحملة وطرد الفرنسيين .

ولم يكن النضال الشعبى مقصورا على فئة معينة ، وإنما اجتمعت فيه كل القوى الوطنية من الفلاحين الى العمال الى الصناع الى التجار الى العلماء ، واندفعوا جميعا فى طريق الزحف الثورى يستهدفون أمرا من اثنين . . . القضاء على الفرنسيين وتخليص البلاد منهم أو الذود عن البلاد

الباب الثالث
الكفاح الشعبي في الوجه البحري

البَابُ الرَّابِعُ
الكفاح الشعبي في الوجه القبلي

واخيرا ...

ننتهى من هذا السرد المتعدد الجوانب للنضال الشعبى فى الوجه القبلى الى أن الفرنسيين لم يستطيعوا اخضاع الوجه القبلى اخضاعا تاما لهم واقرار السلطة الفرنسيه فيه لان قوات الجنرال «ديزييه» ظلت تطارد قوات شتى لاعداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع من جديد وتعود ثانية للنضال ، ومعنى هذا انه صار يحارب حربا لانهاية لها فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة الى أسوان ومن القصير الى واحات الصحراء الكبرى .

ويتضح لنا من هذا العرض أن الفرنسيين قاوموا ثورة الاهالى وكافحوها بالقوة المسلحة وبالنيران وبالارهاب وبالقسوة وبالفظائع الرهيبة التى امتلأ بها تاريخ حروبهم فى الوجه القبلى ، ولا شك فى أن هذه العوامل برغم عنفها أدت دورها فى خضوع قطاعات كثيرة من بلاد الوجه القبلى ، ومع هذا فانها لم تخضع مشاعر الاهالى أو عواطفهم التى ظلت متأججة تحت دافع وطنيتهم ورغبتهم فى تخليص البلاد من الفرنسي

البَابُ الْخَامِسُ ثورة القاهرة الأولى

أسباب الثورة
أول الثورة ... مظاهرة
أحداث الثورة
ماذا بعد الثورة

